

ميزان السلوك في الحياة



تهذيب النفس

أول الطريق في السير إلى الله سبحانه وتعالى، هو أن يبدأ الإنسان من نفسه فينزهها عما حرمه الله تعالى عليها ويعودها الطاعة، وهذا يكون في فترة الشباب بالدرجة الأولى، فتهذيب النفس في عمر الشباب أثبت للإنسان وأرسخ، كما أن الشاب يكون في حالة نفسية وعقلية وجسدية أقدر من الشيوخ على القيام بالله تعالى بأداء طاعاته، أيها الشاب: اسع في إصلاح نفسك ما دمت تحظى بنعمة الشباب، فإن ذلك ستخسر كل شيء في الشيخوخة، فمن مكائد الشيطان ولعلها أخطر مكائده، التي سقط فيها أبوك وما زال، إلا إذا أدركته رحمة الحق تعالى، الاستدراج ففي أوائل الشباب يسعى شيطان الباطن أشد أعداء الشباب، في ثنيه عن إصلاح نفسه ويمنّيه بسعة الوقت، وأن الآن هو أن التمتع بالشباب، ويستمر في خداعه بالوعود الفارغة ليصدّه عن فكرة الإصلاح تماماً، وساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم يتصرّم الشباب، ويرى الإنسان نفسه فجأة في مواجهة الهرم الذي كان يؤمّل فيه إصلاح نفسه، وإذا به ليس بمنأى عن وساوس الشيطان أيضاً، إذ يمنّيه آنذاك أيضاً بالتوبة في آخر العمر. لكنه حينما يحسّ بالموت في آخر العمر، يصبح الله تعالى أبغض موجود إليه، لأنه يريد انتزاع الدنيا محبوبه المفضّل منه. وهذه حالة أولئك الذين لم ينطفئ نور الفطرة فيهم تماماً. وهناك من أبعدهم مستنقع الدنيا عن فكرة الإصلاح كلياً، وسيطر عليهم غرور الدنيا بشكل تام، وقد رأيت أمثال أولئك بين أهل العلوم المتعارفة، وما زال بعضهم على قيد الحياة، وهم يرون أن الأديان ليست سوى خرافة وترهات.

ما هو تهذيب النفس؟

تهذيب النفس هو لبّ العرفان يجب أن يحذر الإنسان أن يدركه الهرم وهو لا يزال يراوح مكانه في تهذيب النفس ونهيتها عن السعي للدنيا لأجل الدنيا، وهذا ما يحتاج إلى مراقبة دؤوبة، وسعي دائم وحثيث للمحاسبة والمعاتبة عند الوقوع في الخطأ، ومن ثم جعل الحياة كلها بحركاتها وسكناتها لله تعالى، حتى الأكل والشرب والنوم، فبإمكان أي منا أن يحول كل هذه المباحات إلى طاعة لله تعالى كأن ينوي بذلك الاستعانة على العبادة وخدمة العباد المؤمنين، استمع الموعظة الواحدة التي يعطنا بها الله، وأرهف لها سمع القلب والروح، ثم اعقلها تماماً، وسر في خطها. يقول تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِرِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَالِكُمْ وَمَا يُبَدِّلُهَا سِوَاهَا وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْكُمْ إِيَّاهُ فَاعْبُدُوا) (سبأ/46)؛ فالميزان في بدء الحركة إنما هو في كونها قياماً لله سواء في الممارسات الشخصية والفردية أو في الفعاليات الاجتماعية. فاسع أن تكون موفقاً في هذه الخطوة الأولى، وما أسهل ذلك في أيام الشباب، وأوفر حظ من التوفيق، وإياك

أن يفاجئك الهرم مثل أبيك وأنت إما مراوح في مكانك أو متراجع القهقري؛ والأمر محتاج في تفاديه إلى المراقبة والمحاسبة،
التوجه □ لا يعني الاعتزال

قد يتصور بعض الناس أن التوجه والانقطاع □ تعالى يعني ترك العلاقات الاجتماعية والابتعاد عن الناس وخدمتهم والسعي للمعاش، فالعرفان لا يعني التصوف والرهبانية، إذ لا رهبانية في الإسلام، بل إن إحدى طرق التقرب إلى □ تعالى هي خدمة خلقه وعباده والسعي في قضاء حوائجهم، إن الميزان في الأعمال هو النوايا التي تستند إليها، فلا الاعتزال الصوفي دليل على الارتباط بالحق، ولا الدخول في خصم المجتمع وإقامة الحكومة شاهد على الانقطاع عن الحق، فما أكثر ما يكون العابد والزاهد واقفاً في شرك إبليس التي تشتد وتتوسع بما يناسب ذلك العابد كالأنانية والغرور والعجب والتكبر واحتقار خلق □ والشرك الخفي وأمثال ذلك مما يبعده عن الحق، ويجرّه نحو الشرك؛ وما أكثر ما يرتقي المتصدي لشؤون الحكومة، فيحظى بلبّ قرب الحق لما يحمله من دافع إلهي كداود وسليمان (عليهما السلام) بل وأفضل منها وأسمى منزلةً، كالنبي الأكرم (ص). فميزان العرفان والحرمان إذن هو الدافع، وكلما كانت الدوافع أقرب إلى نور الفطرة، وأكثر تحرراً من الحجب حتى النورية منها كانت أكثر التصاقاً بمبدأ النور.

عقبات على طريق المعرفة:

إن الكثير من العقبات التي تحول بين الإنسان المؤمن والسلوك إلى □ تعالى، وسنشير إلى أهم هذه العقبات التي نبهنا منها لعلنا نستفيد من ذلك في تخلية الطريق من عقبات قد تسير بنا إلى غير الوجهة والهدف الأساسي الذي نرمي إليه:

1 - حب الأنا:

الأنا هي النفس، والمقصود من حب النفس ليس حب الخير لها وبغض الشر، بل المقصود أن تصيح هذه الأنا كعبة الإنسان وتكون محور حركته دون رضا □ وطاعته، وهي من أخطر العقبات بل هي أكبر الموانع من الوصول لمعرفة □ سبحانه وتعالى وكم حذر منها علماء الأخلاق، فالأنا؛ هنالك أمر مهم بالنسبة لنا نحن المتخلفين عن قافلة الأبرار، وأرى أنه قد يكون ذا أثر في بناء النفس لمن كان بصدد ذلك. فعلياً أن ندرك أن منشأ ارتياحنا للمدح والثناء، واستيائنا من الانتقاد ونشر الشائعات، إنما هو حب النفس الذي يعدّ من أخطر الأشرار التي ينصبها إبليس للعين. نحن نرغب في أن يكون الآخرون مادحين لنا، حتى وإن أظهروا أن لنا أفعالاً صالحة وحسنات وهمية تفوق بمئات المرات حقيقة ما نحن عليه، كما إننا نرغب في أن تكون أبواب الانتقاد - وإن كان حقاً - موصدة دوننا، أو أن يتحول الانتقاد إلى مديح وثناء!

ونحن لا يزعجنا الحديث عن معاييبنا لأنه ليس حقاً، كما لا يسرنا المديح والثناء لأنه حق، بل لأن هذا العيب هو عيبي أنا وهذا المدح هو مدح لي أنا؛ وهو أمر سائد في أوساطنا هنا وهناك وفي كل مكان. وإذا أردت أن تتحقق من صحة هذا الأمر، فتأمل بما يصيبك من الانزعاج إذا انبرى المداحون لمدح أحد الأشخاص على فعل قام به، وكنت قد قمت بذات الفعل، ستنزِع حتى إذا كان ما قام به أفضل مما قمت به أنت، وخصوصاً إذا كان ذلك الشخص من أقرانك وزملائك، وأوضح من هذا المثال: عندما ترى أن عيوب شخص صارت مدائح؛ ففي تلك الحال، تيقن أن للشيطان وللنفس - التي هي أسوأ من الشيطان - يداً في الأمر.

2 - الغفلة عن □ تعالى:

والحذر كل الحذر من الوصول إلى مرحلة نسيان □ تعالى، وعدم الالتفات إليه بحيث يخرج من حساباتنا، واعتبر هذا الأمر في غاية الخطورة، لأن الإنسان في هذه الحالة يصبح مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: (اسْتَجْوَدَ عَلَيْهِمْ السَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ السَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ السَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المجادلة/19). وقوله عز وجل: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر/19)، إن نسيان □ موجب لنسيان النفس، سواء أكان النسيان بمعنى عدم التذكر، أو بمعنى الترك. وفي كلا المعنيين إنذار مروّع. إن ما يلزم نسيان □ تعالى هو نسيان الإنسان نفسه؛ أو قل إن □ تعالى يجرّه إلى نسيان نفسه، وهو أمر يصدق على جميع المراحل السابقة. فمن ينسى □ وحضوره جلّ وعلا في مرحلة العمل يُبتلّ هو نفسه بنسيان نفسه، أو أنّه يُجرّ إلى ذلك؛ ينسى عبوديته فيجرّ من مقام العبودية نحو النسيان. فمن لا يعرف ما هو، ومن هو، وما هي وظيفته، وما هي العاقبة التي تنتظره، فإن الشيطان حالّ فيه، وجالس بدلاً من نفسه، والشيطان عامل على العصيان والطغيان. وإذا لم يثب ذلك الإنسان إلى رشده، ويرجع إلى ذكر □، وغادر هذا العالم وهو على

هذه الحال من الطغيان والعصيان، فقد يأتي في ذلك العالم على شكل شيطان مطرود من قبَلِ الله تعالى. أما إذا كان النسيان بمعناه الآخر (أي: الترك)، فإنَّ الأمر سيكون أشدَّ إيلاماً، لأنَّه إذا ترك طاعة الله، وترك الله، فإنَّ ذلك يستوجب أن يتركه الله ويكرِّله إلى نفسه، ويقطع عنه عنايته. ولاشكَّ أنَّ الأمر سينتهي به إلى الخذلان في الدنيا والآخرة. لذا نرى كثرة ما ورد من تأكيد الدعاء بعدم الإيغال للنفس في الأدعية المأثورة عن أهل البيت لأنَّهم (عليهم السلام) يدركون نتائج هذه المصيبة، في حين أننا غافلون عنها.

3- حب الدنيا:

وأما حب الدنيا فإنه من أشد الأخطار على علاقة الإنسان بربه، وهذا ما يجب الحذر منه: لا تسعَ للحصول على الدنيا أبداً حتى الحلال منها - فإنَّ حبَّ الدنيا - حتى حلالها - رأس جميع الخطايا، وهي حجاب سميك يضطر الإنسان إلى الحرام منها. فأنت شاب تستطيع - بما حباك الله به من القوة - منع أول قدم تزل نحو الانحراف، فتمنع بذلك من التحاقها بخطى أخرى، فلكل قدم قدم أخرى تتلوها، وكل ذنب مهما صغُر - يجرُّ المرء نحو ذنوب أكبر، حتى تستحيل الذنوب الكبيرة في نظره لِمَما يُستهان بها، بل قد يبلغ الأمر بالبعض أن يفتخروا بارتكاب بعض الكبائر! لا بل قد يصل الوضع لدى البعض الآخر حدّاً - أحياناً - يجعلهم يرون المنكر معروفاً والمعروف منكراً! نتيجة شدة وكثافة الظلمات والحجب الدنيوية.

خلاصة

على الإنسان أن يسعى لمعرفة الله تعالى من خلال أداء الطاعات واجتناب المحرمات، والسعي للوصول إليه بمجاهدة النفس وتنزيهاها عن الهوى، وحب الدنيا. أول الطريق في السير إلى الله سبحانه وتعالى، هو أن يبدأ الإنسان من نفسه فينزهها عما حرمه الله تعالى عليها ويعوِّدها الطاعة، وأفضل عمر له الشاب فهو أثبت للإنسان وأرسخ، كما أن الشاب يكون في حالة نفسية وعقلية وجسدية أقدر من الشيوخ على القيام بعبادات طاعته. إنَّ الانقطاع عن الله تعالى لا يعني ترك العلاقات الاجتماعية والابتعاد عن الناس وخدمتهم والسعي للمعاش، فالعرفان لا يعني التصوف والرهبانية، إذ لا رهبانية في الإسلام.